الوعي

١٢٠

مجلة تركيا الإسلامية الحضارية

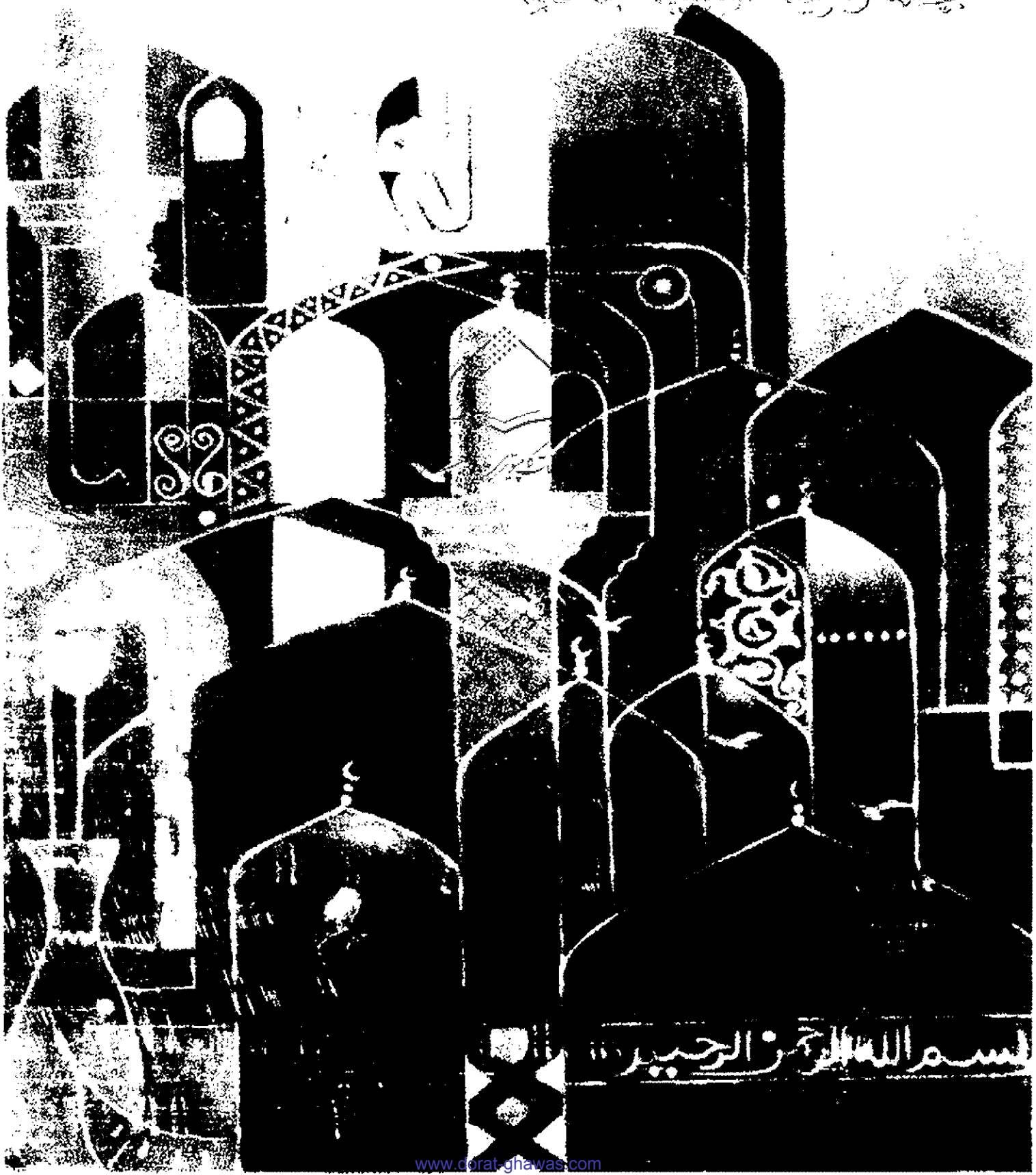

بسم الله الرحمن الرحيم

www.dorat-ghawas.com

المجلد الثلاثون ـ العدد الرابع ـ ٢٠٠٩م ـ ١٤٣٠هـ

المحتوى

■ الموردة

* قاتَلَهُمُ اللّـهُ أنّى يُؤفكون ..... د . محمد البكاء ٣ ـ ٤

■ بحوث ودراسات

* اليهود في القرآن الكريم ..... د . محمد البكاء ٥ ـ ١٥
* تجارة العرب المسلمين الى البيزنطية ..... د . طه خضر عبيد ١٦ ـ ١٩
* التقسيم الاقليمي في كتب التراجم الادبية
نشأة ـ تطور ـ نتائج ..... د . احمد النجدي ٢٠ ـ ٢٨
* صور الشعراء الفنية ـ قبل الاسلام ـ
من الوجهة النفسية ..... د . احمد اسماعيل النعيمي ٢٩ ـ ٣٩
* حسين بن علي العشاري
دراسة تحليلية في شعره ..... أ . د . عباس مصطفى الصالحي ٤٠ ـ ٥٧
* الفكاهة والغزل في شعر الفقيه
المجاهد محمد سعيد الحبوبي
١٨٤٩ ـ ١٩١٥ ..... أ . د . محمد حسن علي مجيد ٥٨ ـ ٦٩
* مقابسات في الفلسفة الصوفية
القسم التاسع ـ الجزء الاول ..... عزيز عارف ٧٠ ـ ٧٨

■ نصوص محققة

* شعر ابن منادر / ٥٧٠هـ القسم الاول ..... جمع وتحقيق عبد العزيز ابراهيم ٧٩ ـ ٩٥
* شعر ابن ليون التجيبي المتوفى
سنة ١٩٨هـ القسم الاول ..... د . هدى شوكت بهنام ٩٦ ـ ١٠٩

■ نقد وتعقيب

* كتاب « نسيم السحر » للثعالبي
توثيق وتأصيل ..... د . محمود عبد الله الجادر ١١٠ ـ ١٢٠
* اخبار التراث العربي ..... حسن عربيي الخالدي ١٢١ ـ ١٢٨

في هذا العدد

www.dorat-ghawas.com

حسين بن علي العشاري

١١٥٠ ـ ١١٩٥ هـ
١٧٣٧ ـ ١٧٨١ م

دراسة تحليلية في شعره واغراضه

أ . د . عباس مصطفى الصالحي
كلية التربية_ابن رشد
جامعة بغداد

توطئة

يعد الشاعر حسين بن علي بن حسن فارس العُشاري البغدادي واحداً من أعلام العصر الوسيط ، العصر المفترى عليه في اصالته ، وجودة نتاجاته لا لحقيقة وضعه ، أو لضعف أفكاره وأساليبه ، وانما لبعد فريق من الباحثين عنه ، فهم يصدرون أحكاماً ليست مبنية على الدراسة الفاحصة لنصوصه المتوارثة ، ويبدو أنهم قلبوا صفحات من التاريخ ، فهالهم تخلف الحاكمين ، وتسلط الغرباء الجاهلين ، إذ كانوا أجانب لا يفقهون لغة الادب ، ومن ثم لا يمكن أن يستوعبوا صور الشعر وأحاسيسه ، ولا فكر النثر وأساليبه ، لذا خيل لاولئك الباحثين أن مستوى الادب عامة ، والشعر خاصة مرهون بالحطام ، فاتجه الكثير منم الى إطلاق الاحكام جزافاً ، ألحقت الحيف بالأدب والادباء ، والشعر والشعراء ، والمفكرين والعلماء ، ونسوا ، أو تناسوا ، أن عظائم المصنفات ، وكبار العلماء قد كانوا من نتاج هذا العصر ، الذي أطلق بعضهم عليه « الفترة المظلمة ، وأسماه آخرون : « عصر السبات ، أو الركود ، أو الانحطاط ، او التدهور » ، أو « العصور المتاخرة » .

لذا ارتايت أن نطلق مصطلح « العصر الوسيط » على المدة الزمنية التي حكم فيها العراق وما جاوره أجانب غرباء ، ابتداءً بالمغول ، وانتهاء بالعثمانيين ، وعلى هذا فان « العصر الوسيط » يقع بين احتلالين ، يبدأ بدخول المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وينتهي بدخول الجيش الانكليزي في سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م .

إن من أخطر التهم التي صوبت الى أدب العصر الوسيط كونه مصنوعاً ، ولا يسعني في هذا المجال إلا الاسترشاد برأي أستاذنا الراحل الدكتور مصطفى جواد ، الذي قال : « ... ولكن الصنعة الأدبية إذا بلغت الذروة أشبهت الادب المطبوع ؛ لان الغرام بالفن يستمد من الملكة والطبع معاً ، وقد ثبت أن صدق الشعور وحده لا يكفي في دعوى روعة الادب ، كما ثبت في الفنون على اختلافها أن التقليد فيها يبلغ أحياناً مرتبة المقلد ، فلا يمكن التمييز بينهما إلا بشيء غير فني ، وإننا لنجد كثيراً من الرثاء المأجور والرثاء المقترح ، والغزل المتكلف يفوق الصادق منهما ... »[1]

فما أحرانا ، نحن ورثة هذا التراث الثر ، بان نعيد النظر بمواقفنا منه ـ وبان نتلقفه بادراك ، وأن نضعه حيث يجب أن يكون ، ضمن سلسلة مراحل أدبنا التطورية ، وندرسه دراسة المستفيد ، ونتقبله تقبل الفاهم لعوامل ولادته واستمراره ، مقومين لكل أديب جهده ، ومستوعبين لكل شاعر فنه ، وحينئذ سنطلع حتماً على روائع الأساليب ، ونتلقف جوامع الافكار ، فلا يفوتنا رحيقها الثقافي ، فتتواصل حلقات حضارتنا ، وتترابط أفكار أجيالنا المتعاقبة ، ناشدين الانطلاق نحو مستقبل أخصب ، وثقافة أعمق أصالة .

من خلال تلك المفاهيم ، وانطلاقاً منها ، وسعياً الى تعزيزها ساحاول فهم شاعرنا العشاري ، والنظر اليه من زوايا تقويم منصفه ، نزيهة ؛ لانه يمثل رعياً أثقلت وطاة الحكام الغرباء كواهلهم ، ولانه يجسد تحدي الأمة المشروع في وجه عوامل الازاحة والمحق ، ولانه واحد من الشواهد على حيوية ثقافتنا ، وعراقة حضارتنا

حسين العشاري
(١١٥٠ ـ ١١٩٥هـ = ١٧٣٧ ـ ١٧٨١ م)

ولد هذا الشاعر واحدٌ من أبناء بغداد المشهورين ، نشأ في أسرة عربية ، تتصل أواصرها بقبيلة فدحج اليمانية ، ونسب العشارة .[2]

www.dorat-ghawas.com

على الرغم من أن ولادته كانت في بغداد ، لكن في شعره حنيناً الى العشارة[٢] ، موطن أسرته الاول ، مما يشعرنا بان أسرته قد كانت قريبة العهد ببغداد ، كثيرة الاحاديث عن العشارة ، حتى وقر في ذهن الشاعر أحاديث الاسرة وذكرياتها ، فظهر كل هذا في شعره .

كان والده : الشيخ حسن يحترف تعليم العلوم الدينية ، كاقراء القرآن الكريم ، وتحفيظ الحديث النبوي الشريف ، آي صاحب « كتّاب » .

ثقافته :

إن نشأة العشاري العلمية غامضة ؛ فليس ثمة معلومات صريحة تفيدنا بأسماء شيوخه ، ووسائل تلقيه العلوم ، ولكن المتصفح لديوانه ، والمتفهم لشعره يقف على حقيقة بارزة تكشف لنا حصيلته اللغوية ، وموهبته الشعرية ، ومكانته الادبية . ويقول نفسه في مقدمة ديوانه :

« قد كنت في ابان الشباب ، وأوان التحصيل والاكتساب ، شغوفاً بصناعة الادب ، متقصياً عن لطائف العرب ، متعلقاً من فنون الفصاحة بكل سبب ، أزاحم فحول الشعراء ، وملوك الفصحاء ، فاجول معهم كل مقام ، وأضرب في معترك المعاني بكل حسام »[٤]

ولعلو منزلته في الفقه والافتاء كان يلقب بالشافعي الصغير تارةً ، وبالشافعي الثاني أخرى ، وقال في مقدمة بعض كتبه :[٥]

« كنت في أيام الصبا وعنفوان الشباب مكباً على مطالعة مؤلفات فقه أصحابنا السادة الانجاب ، متقصياً عن نكاتها الصعاب ... » ، ولقد قال الالوسي عنه : « إنه كان أعلم أهل عصره بفقه الشافعي »[٦] ، أما معاصره وصديقه المرادي فقال عنه : « كان رحمه الله ـ له تضلع كلي في سائر العلوم ، معقولها ... وكان مشهوراً بحسن الاملاء والانشاء والنظم البديع »[٧]

وهذه المكانة العلمية ، والقدرة الادبية ، والموهبة الشعرية تفيدنا أن العشاري كان على اتصال بمؤسسات العلم في عصره ، ابتداءً بالكتاتيب وانتهاءً بالمساجد وشيوخها ، فضلاً عما تلقفه من أبيه من دراسة للقرآن الكريم والحديث الشريف .

إن من مواهب شاعرنا أيضاً اتقانه الخط العربي ، وحبه لانواعه ، لذا قال الالوسي عنه : « وكان له خط يعجز ابن مقلة ...»[٨] فاتاح له ذلك نسخ المصنفات في مختلف ضروب المعرفة مما زاده علماً وثقافة متنوعة ، وأسهم في تفتيق مواهبه الذهنية ، وتاجج قدراته العقلية ، فكان العشاري .

مما مهد لشاعرنا وسائل التحصيل الاولية كون أباه شيخاً قد احترف « تدريس العلوم الدينية ، من إقراء للقرآن الكريم ، أو تحفيظ للحديث الشريف »[٩] ، ولا اعتقد أن هذا كاف في اشباع نهم الرجل العلمي ، وبخاصة اذا أدركنا أنه « أرسل من بغداد للتدريس في البصرة سنة ١١٩٤ »[١٠] ، فمثل هذه المهمة لا يتحمل مسؤوليتها إنسان غفل من المعرفة ، فضلاً عن الذكاء الفطري ، والملكة الشعرية التي يدلل عليها ديوانه الكبير .

ولكي نلقي أضواء على ألوان العشاري ، لا بد من استعراض اسماء شيوخه ، واحصاء مؤلفاته ، والوقوف عند المصنفات التي استنسخها بخطه . وبالنسبة الى شيوخه فانه تتلمذ على الشيخ جمال الدين عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي السويدي البغدادي (١١٠٤ ـ ١١٧٤هـ/ ١٦٩٢ ـ ١٧٦٠م) ، عالم العراق وأديبه في القرن الثاني عشر الهجري ، وكان هذا العالم قد انتفع بعلمه أولئك الذين تربدوا على داره ، او في جامع الامام الاعظم بالاعظمية ، او جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد ، أو في المدرسة المرجانية (جامع مرجان ببغداد حالياً) .

ثم أفاد العشاري أيضاً من الابن العلامة الشيخ عبد الرحمن السويدي (١١٣٤ ـ ١٢٠٠هـ/ ١٧٢١ ـ ١٧٨٥م) ، « وكان العشاري أكبر منه فيما يبدو باكثر من عشر سنين ، إلا ان نبوغ السويدي في العلوم المختلفة ، واشتهاره بسعة معارفه ، وغزارة مصنفاته دفع بشاعرنا الى التلمذة عليه ، وقد امتدحه ببعض قصائده ... »[١١]

وغير أبي الشاعر ، وغير هذين العالمين الجليلين لن نعرف للشاعر شيوخاً آخرين ؛ إذ ضنت المصادر بالمعلومات الوافية ، ويقيناً أن رجلاً مثل العشاري لا يشبع طموحه العلمي سوى التردد على مساجد بغداد وحلقاتها العلمية ، متصلاً بشيوخها ، مرتشفاً من علومهم .

ويمكننا أن نتلمس مصادر ثقافة العشاري في مسالك أخرى ، لعل أقربها الى الذهن احتكاكه بالمخطوطات التي تختزن شتى ألوان العلوم في عصره ، وأنواع الثقافة لدى جيله ، إذ « دفعه ولعه الشديد بفنون الخط العربي وضروبه الى نسخ عدد كبير من المؤلفات المهمة في اللغة والادب والمنطق والعقائد والفقه ، وهو لم يزل شاباً في مقتبل حياته العلمية ، فزاد ذلك من تنوع معارفه واتساع تفكيره »[١٢] ، ويعد العشاري من مشاهير الخطاطين المجودين في حينه[١٣] .

آثاره:

تعد مؤلفات العشاري ، التي حفظها لنا الزمن من الضياع ، صوراً من ثقافته ، وهي تعكس بحق نشاطه العلمي ، وتحدد أنواع ذلك النشاط ، ففضلاً عن ديوان شعره ،

www.dorat-ghawas.com

فان له مؤلفات وحواشي وتعليقات ، منها :

١ ـ مجموعة من الادعية جمعها من الاحاديث النبوية ، والآثار الدينية ، مع شيء من شعره ، أسماها : (حزب الأوقات وورد الساعات) ، جاء في ختامه : « انتهى فراغ تحرير هذه الرسالة على يد جامعها ، ومموليها ببغداد دار السلام في اليوم الثاني عشر من ذي القعدة الحرام من شهور عام أربعة وثمانين بعد المئة والالف من الهجرة النبوية » ، وفي مكتبة الاوقاف المركزية ببغداد نسخة نقلت من نسخة بخط المؤلف ، انتهى الفراغ من كتابتها يوم الاثنين الموافق السادس من جمادى سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م ، ضمن مجموعة برقم (٧٠١٨)[١٤] ، ولكن البغدادي أسماها : « رسالة أوراد الاسبوع »[١٥] .

٢ ـ رسالة في مباحث الامامة :[١٦]

وهذه مكونة من أربعة فصول وخاتمة ، فرغ العشاري من تاليفها سنة ١١٩٤هـ . توجد مسودتها في مكتبة الأوقاف المكزية ببغداد ، ضمن مجموعة رقمها (٢ / ٢٤٢٦٥ مجاميع) ، ونسخة ثانية رقمها (٥ / ١٣٨٥٣) ماخوذة من نسخة المؤلف سنة (١٣٠٣هـ)[١٧] ، لها اسم آخر هو : « الابحاث الرفيعة »[١٨] .

وللعشاري حواش على مؤلفات دينية تنم على سعة علمه ، وعمق وعيه للمسائل الفقهية ، ولا سيما الفقه الشافعي ، الذي كان مفتياً فيه بجدارة .

ومن تلك الحواشي « حاشية على شرح الحضرمية لابن حجر الهيتي » فرغ من كتابتها ظهر يوم الاثنين الحادي عشر من ذي القعدة سنة ١١٩٥هـ ، وفي مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد نسخة منها بخط العشاري نفسه ، رقمها (٧٠٦٠) ، وأخرى بخط الشيخ عباس العذاري الحلي ، عن نسخة العشاري ، تاريخها (١٣١٤هـ) ورقمها (٢٥٣٨٤)[١٩] .

٣ ـ مجموعة أدبية :

أما تاليفه في المجال الادبي فيتجلى في « مجموعة أدبية » تقع في جزأين ، يشمل الأول منهما عدداً من رسائل معاصريه ، اذ « يتضمن هذا القسم قطعاً نثريه للسيد عبد الله الفخري ، ومقدمات رسائل ، وصوراً لتقاريظ ، منها بعض رسائل في علم العروض للوزير راغب باشا ، وكتاب الى سلطان المغرب بشان حماية الحج ، ورسالة من الأديب عبد علي الحويزي الى السيد علي المغربي ، وأبيات لعثمان أفندي الدفتري الموصلي »[١٩]

ويتضمن الجزءالثاني ما انتجته قريحة العشاري من رسائل ، كان قد وجهها الى من عاصره من أشراف مكة المكرمة ، ويتضمن أيضاً نثرية لرسائل في أغراض مختلفة[١٩]

وفي مكتبة الاوقاف المركزية ببغداد نسخة من هذه المجموعة الادبية رقمها (٨٧٤٠) وهي أصلًا من كتب المحامي عباس العزاوي

واذا جاز لنا أن نعد ما كتبه العشاري بخطه الجميل من روافد ثقافته فانه نسخ الشيء الكثير من المصنفات ، وصل منها[٢٠]

١ . تحفة المحتاج في شرح المنهاج ، تاليف احمد بن حجر الهيتي المكي . ومنه نسختان اولاهما : في الخزانة النعمانية في المدرسة المرجانية ، وقد فقدت . أما الثانية ؛ فقد فرغ من نسخها « ظهر يوم السبت الميمون ، الحادي والعشرين من شعبان المبارك سنة أربع بعد المئة والالف من الهجرة النبوية ، وهذه النسخة محفوظة في المكتبة العباسية في البصرة »[٢١]

٢ . شرح الالفية للسيوطي : من كتب الخزانة النعمانية ، ولكنها مفقودة .

٣ . حاشية على تفسير البيضاوي ، لشيخ زادة محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى القنوحي (ت ٩٥١هـ) ، وتاريخ نسخها (١١٩١هـ) ، وهي الآن في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد ، رقمها (٣٤١)

٤ . مجموعة تحتوي :

آ . ديوان حسان بن ثابت ، نسخ سنة ١١٧٤هـ ، وعليه تعليقات للعشاري .

ب . ديوان الامير جمال الدين أبي منصور علي بن عبد الله بن مقرب العيوني ، نسخ سنة (١١٧٥هـ) .

حـ . ديوان سقط الزند للمعري ، نسخة سنة (١١٧٥هـ) .

ومجموعة الدواوين هذه من مقتنيات الاستاذ محمد بهجة الاثري .

٥ . الدر المختار في تنوير الابصار ، من مؤلفات محمد بن علي بن محمد علاء الدين الحصكفي العباسي ، كتبها

www.dorat-ghawas.com

العشاري سنة ١١٦٩هـ ـ، وهي من مخطوطات مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد، رقمها (٧٤٦٤).

٦. نزهة النظر شرح نخبة الفكر، لابن حجر العسقلاني، كتبها العشاري سنة (١١٦٦هـ). وهي من مخطوطات مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد، رقمها (١٧ / ٦٤٥٣ مجاميع).

٧. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، تاليف حسين ان محمد الدياربكري، كتبها العشاري سنة (١١٦٧هـ)، وهي من مخطوطات مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد، رقمها (٨٢١).

ديوانه :

لقد تولى العشاري جمع شعره بنفسه، وخطه بقلمه، بعد إهمال خشي ــ لو استمرت ــ ضياعه، فهو القائل: « كنت اتهاون بتحرير ما أنظمه من القصائد، وتسطير ما أبديه من الفرائد، الى أن سالت به البطاح، وذهب أدراج الرياح، وضاع منه أضعاف ما انتسخ، وهال منه أمثال ما رسخ، فصرفت همتي الى جمع ما أبقته الايام، وضبطته الاقلام، في ديوان جامع، وسفر رائع ...»[٢٢].

ويبدو أنه نسق قصائد وفق ظهورها زمنياً، إذ قال عن ديوانه: « إن مراتب أشعاره بحسب مراتب شاعره، وترقيه أولًا فأولًا، فما كان منه ضعيف الحركات، قليل الثبات فهو ما نظمه في أول الحالات، وما كان متوسطاً في المقال فقد نسجه في أوسط الاحوال، وما بلغ من الحسن الغاية فهو مرتبة النهاية ... »[٢٣].

وعلينا ــ إذن ــ ألا نطمع في تتابع القصائد على وفق تسلسل رويها؛ فقد بانت الخطة التي انتهجها العشاري، فقد سطرها في مقدمة ديوانه.

لقد حقق « ديوان العشاري »، وعلق عليه: الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ووليد عبد الكريم الاعظمي، « فاهتم الخطاط وليد الاعظمي بتحقيق النص، وسلامته من النواحي الشعرية واللغوية والادبية، في حين اهتم الدكتور عماد عبد السلام بتحقيق النواحي التاريخية، وكتابة المقدمة »[٢٤].

لقد مهدت للديوان دراسة استغرقت (٧٧) صفحة، تضمنت حياة الشاعر من حيث مسقط رأسه، واسرته، ونشاته الاولى، وديوانه، ونسخ مخطوطته الخمس، ثم ختم الديوان بثبت يحوي مراجع التحقيق، وفهرسا للقصائد، وشكرا وثناء

يتكون الديوان من (١٦١) مئة وواحد وستين نصاً. فيه القصائد والمقطوعات والاناشيد، والارجاز، والمخمسات، والمشجرات، والالغاز.

إن النص (١٦٢) منظومة دينية مطولة، نظمها العشاري على النمط التقليدي المعروف بالمعشرات، سنة ١١٨١هـ، وسماها « تنقيح المديح في صاحب القدر الرجيح »، تتكون من (٢٩) مقطعاً، عدد حروف المعجم، وينتهي به، مع ملاحظة التصريح في اول كل مقطع، ولذا سميت بالمعشرات، ولقد كانت من بحر الخفيف.

ثم ختم الديوان بمجموعة من البنود، كونت النصين: ١٦٣، ١٦٤.

تولت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في العراق نشر هذا الديوان سنة ١٣٩٧ / ١٩٧٧م فكان الكتاب الخامس والعشرون ضمن جهودها في احياء التراث الاسلامي، فخرج سفراً ضخماً يقع في (٥٦٣) صفحة.

وللحقيقة أقول: إن المحققين قد بذلا جهوداً متناهية، وكان من المنتظر أن يخرج الديوان بهياة تتناسب مع تلك الجهود، فيكون أفضل مما هو عليه الآن لكن رداءة الطباعة، واهمال الحروف من الضبط بالشكل، وبخاصة الاشعار، فضلًا عن رداءة الحروف حجماً ووضوحاً، أدى كل ذلك الى غمط جهود المحققين الفاضلين جزاهما الله تعالى جزاء العلماء العاملين إنه سميع مجيب.

الشعر وفنونه :

إن العشاري شاعر مكين الموهبة، أصيل الملكة، رصّن قدراته باستشفاف تراثنا العربي في عصوره المختلفة، فتراه ملماً، بل حافظا، شعر الكثير منهم. عنترة، والذبياني، والخنساء، وحسان، وأبي تمام ... الخ، غير بعيد عن مربعهم، وأسماء أماكنهم، ونباتاتها وأزاهيرها، فحين نقرأ شعره نتنسم من أثنائه عبق الشيح والرند والقيصوم، وتتردد في أسماعنا أصداء مسلع ورامة والرقمتين وحاجر، وكأني به حريصاً يروم التشبث بلغته العربية الاصيلة، محافظاً على ثوابتها القديمة، في عصر كانت السياسة بعيدة كل البعد عن الاهتمام بلغة القرآن الكريم، فكون الحكام غرباء عنها آل أمر صيانتها الى أبنائها من العلماء والحفظة والشعراء، وكان العشاري واحداً من اولئك البررة.

www.dorat-ghawas.com

ومن الفنون التي كنا نطمح أن يكثر العشاري من نظمه « فن الرباعيات » الذي شاع في عصره ، وبخاصة في الأوساط الدينية ، ومجالس أذكار الصوفية ، لكننا لم نقرأ له سوى نص واحد متكون من (٨) ثماني رباعيات مذيلة ، نظمها في مدح الرسول (ﷺ) ، منها المطلع :

أقسمتُ بخـالقِ السها والطـورِ ربِّ البشـــــر
إنّي بهـوى المحتار كـالمخمورِ صفـــو مضـــر

ويختمها بقوله :

نفـديك أبـا البتـول بـــالارواح
بـالاعين بـالقلـوب بـالاشبـاح
من بعـد صـلاةِ ربّنـــا الفتـاحِ
تغشى مـرقداً بنـورها المغمـورِ نـــور بهـــر
والآل مع الصحب ذوي التيسير أهل الغرر[٢٥]

إن الصنعة والتكلف باديان على هذا النص ، والالفاظ قد زجت في قالب الوزن ، فهي تفتقر الى التآلف والانسجام خلافاً لما تعودنا في الرباعيات ، من رقة في الالفاظ ، وخفة في الوزن ، ووضوح في المعنى ، ولعل نظم هذا الفن قد تعثر في يدي العشاري ، وهذا بحدِ ذاته مما يفسر لنا شحة الرباعيات في ديوانه الضخم .

واذا جاز لنا أن نعد نظم النشيدين اللذين وردا في ديوان العشاري فناً مستقلًا ، وان كان ايقاعهما من بحر الهزج ، فقد قالهما في مدح الرسول (ص) .

يتكون الاول من (١٩) تسعة عشر مقطعاً ، ومطلعه :

فـــانت النيّـر الأعلى ونحن بعد صليتا[٢٦]
وأنت المنهـــــلُ الاحلى
عليـــك الله قـــد صلى

أما النشيد الثاني فمتكون من (١٣) ثلاثة عشر مقطعاً ، ومطلعه :

بهِ خيرُ الـوَرَى قد حـلّ عنِ التعدادِ والحصرِ[٢٧]
وفيـــهِ السيـــد الاكمـــل
نبي فضلـــهُ قـــد جـــلّ

وقد اتحفنا العشاري بقصيدة طويلة ، من الشعر الذي تواطأ الباحثون على تسميته بالمعشرات ، وقد أشرنا اليه عند الحديث عن « ديوانه » ، قال في حرف الهمزة مثلًا :

أشرقَ القلبُ بالجمال المقيمِ
إذ هوى طلعةَ النبيهِ النبيء
أصبحَ الطّرفُ من ثناهُ قريراً
فانقضى عصرهُ بعيشٍ مرىء
أترى عن (محمد) كيفَ يسلو
قلبُ صبٍ بحبّهِ مملوء
أحمدُ الرسلِ مَن أتانا بنورٍ
ساطع من كتابهِ المقروء
آيب للاله في كلّ حالٍ
حامد جاء بالهدى والوضوء
آمر عاقب وجيه نصيح
وصفوح عن كلّ عبدٍ مسيء
أوضح الحقّ فانجلى كل ريب
حيث نادى بسره المخبوء
أمن الغير استمد نوالًا
ونوال الفقير غير هنيء
أنت يا سيد لنا نِعْمَ ذخرٍ
لزماني المجّدع المزروء
أنا عبد لعبده غير اني
لست أدعى بمدحه عبد سوء

وهكذا يسترسل العشاري حتى يتمها (٢٩) تسعة وعشرين مقطعاً ، فقد زاد على حروف المعجم الثمانية والعشرين « اللام والالف » فقال قبل حرف الياء مقطعاً ، مطلعه .

لامني باشتياقي
لائمي لمرقدِ
ودامَ قد
محالا تلالا[٢٨]

أما الفن الأخير الذي حواه ديوان العشاري فهو « البند » ، إذ اشتمل النص « ١٦٣ » على ثلاثة ألواح كرّس الاول منها لذكر الله تعالى ، فقال في مستهله :

لكَ النعمةُ والمجدُ ، وأنتَ الصّمدُ الفردُ ،
خلقتَ الحرَّ والعبد ، لكَ الأمرُ بلا ردٍّ ،
تعاليت عن الرسم ، تجاوزت عن الحدّ
فلا أينَ ولا كيفَ ، ولا ظلم ولا حيف ،
ولا شين ولا عيب ، ولا شك ولا ريب ،

الى أن يقول خاتماً اللوح الاول من البند :

فسبحان الذي جلّ
عليه الكون قد دلّ
فمن وحّده فاز ومن أنكره ضلّ
له الحمد مع الشكر

www.dorat-ghawas.com

- مدى العمر
وما جردت البيض ، وهزت عندها السمر
وما شاهده العارف ، والطائف والعاكف ،
ليلًا نهاراً .

وخصص اللوح الثاني للرسول (ﷺ) ، مستهلًا إياه بقوله :
إله - تم الرسل
بفض جمع الفضل ، ونور محق الجهل ، وحق قوله الفصل
به قد رقع الشرع .

ثم يختم ذلك استعراض خصال الرسول (ﷺ) ، ومعجزاته ! ومنزلته عند الله تعالى ، ومكانته بين الرسل الآخرين ، بقوله ممهدا لمدح (عبد الله الفخري) :
فعليه الله صلى
وحباه منه فضلا
وعلى الآل مع الصحب ، نجوم الوصل والقرب ، وأمل التشوق والحب .
وباقي الخلف الطاهر نور الفلك الزاهر
من طهرهم ربك من قانورة الرجس
سراراً وجهاراً .

وباللوح الثالث من البند يدخل العشاري الى مدح عبد الله الفخري ، وهو — على ما يبدو — الذي أنشيء البند من أجله ، فيقول :
فمن عترته العز ابو أسعد والفخر
كريم الأصل والذجر وسيف العز والنصر .
وبحر العلم والحلم ، وموري زند الحق ومحيي سنن العزم
الى أن يقول .
هو (عبد الله) حبر
لبني الحاجات ذخرٌ ، علمه درٌ وبرٌ
زين الطرس وحلى ، كشف الجهل وحلى وغدا في الصحف يتلى ، ومن الشهدة أحلى

وبعد (١٦) ستة عشر سطراً ، يبدأ العشاري بالدعاء ، مخصصاً له[٢٩] تسعة أسطر ، قائلًا .
فادام الله فخره
وأطال الرب عمره ، واستطاب السمع ذكره .
مدى الأيام والدهر ، وما درّ لنا الرزق وما انهلّ لنا القطر ...

ثم يختم البند مفتخراً ببنوده ، ببيتين من القريض :
ولقد غزوت الكاشحين بخدودي
فكسرت قلب جيوشهم بجنودي
وقصصت أجنحة الجميع بصارمي
لما نشرتُ لهم تلات بنودِ[٣٠]

ونجد بنداً آخر ، من أربعة ألواح ، الاول في تمجيد الخالق تعالى ، والثاني في الحديث عن الرسول (ﷺ) ، وفي الثالث يمدح السيد أسعد ، وفي الرابع يمدح السيد فخري ، وكلاهما من ولد السيد الله الفخري

شعره :

إن استرداد حياة الشاعر ، وتحديد ملامحها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والذاتية ، لتوحي إلينا ، قبل صفحات ديوانه ، باغراض شعره البارزة .

فليس اعتباطاً أن يغلب المدح على باقي الاغراض ، بل ان السيرة الذاتية للعشاري لتقدم لنا هذا الغرض بصورة منتظرة ، في عصر ضاقت سبل العيش أمامه ، فما كان من الموسرين المرفهين كي يستغني عما في حوزة الآخرين من مال ، فضلًا عن انه لم يحترف عملًا رائجاً يسد بمورده منافذ التكسب بشعره . وإن استطاع باحتراف النسخ أن يطفيء بعض حاجاته الحياتية ، ولكن هذه الحرفة ، ومنذ عصور التدوين الاولى ، لم تكن تضفي على محترفها أسباب الغنى والرفاه ، لذا وجدناه حليف الحاجة ، ورفيق الفاقة غالباً .

ان العشاري فقيه ضليع ، واضح التدين ، صادقة ، لذا وجدناه شديد التعلق بخالقه ، ورسوله (ﷺ) وكبار رجالات الدين ، ورموزه الكبيرة ، وانعكس كل ذلك على قسم غير يسير من مدائحه .

كما ان ادب العشاري ، شعراً ونثراً ، وطد له علائق جيدة مع الادباء وكتاب الدواوين ، وفئة من شخوص السياسة عصر ذاك ، فضلًا عن وفائه المتميز لشيوخه وذوي المعرفة .

كل ذلك كان ذا أثر بالغ في مدائحه ومراثيه ، وتحديد انواعها ، ورسم البنية الخاصة لكل نوع منها .

وبعد هذه التوطئة العجلى ، ينبغي أن نقف بتان وتامل عند أغراض شعره ، نتلمس ملامحها الفنية ، من خلال استعراض القصائد ، والتطلع الى أشياء من بنائها الفني .

الاغراض :

في « ديوان العشاري » قصائد كثيرة في أغراض شتى ، ولكن يبقى المدح والرثاء ، وثالثهما الغزل هي

www.dorat-ghawas.com

الاغراض البارزة بشكل لافت للنظر ، لذا سنتناولها بالدرس والتحليل ، علنا نوفق بالوقوف على الجوانب المهمة فيها

المدح :

في ديوان العشاري أربعة أنماط للمدح ، أبرزها من حيث الكم المدح الاجتماعي ، وهو الذي وجهه الشاعر لاصدقائه ، وفي مقدمتهم السيد عبد الله الفخري ، اذ كرس له « ١٧ » سبعة عشر نصاً مجموع أبياتها (٧١٤) ، هذا غير الاعتذار ، والتداخل في أغراض أخرى .

لقد اتخذت هذه المدائح بنية تكاد تكون مطردة في كل النصوص ، سوى حالات محدودة ، تفتقد قصيدة المدح فيها بعض ملامحها ، ولناخذ احداها نموذجاً لهذا النوع ، ولتكن القصيدة الأولى[٢١] التي مدح الشاعر بها السيد عبد الله الفخري ، والتي كانت واسطة الاتصال بينهما .

القصيدة فائية ، من بحر الكامل ، تقع في واحد وستين بيتاً ، استهلت بمقدمة غزلية ، استغرقت (٢١) واحداً وعشرين بيتاً ، تذكرنا هذه المقدمة بمطالع القصائد القديمة :

فمخاطبة الاصحاب ، وذكر الغزلان ، واللحاظ الفاترة ، ونظراتها الفاتكة ، كالرماح والسيوف المهندة ، والمرأة فيها عربية ، رضابها خمر ، وخصالها ساخرة ، وحديثها لطيف :

يـاصاحبي هـلا مـررت بخندقٍ
ورأيتَ قـائمـةَ الغـزالِ الأهيفِ
ونظرتَ فاتـرةَ الجفونِ لحـاظها
يسطـو بأسمرَ في القلوبِ ومـرهفِ
وتميـد بـالإلفِ القـويم كـأنهـا
غصنٌ تـرنـح بـالـريـاح العُصَّفِ
فـالامَ والخـدَ الأسيلُ محجبٌ
بظبيـا الجفـونِ وورْدُهُ لم يقطفِ
وعلامِ تختطفُ النفوسَ عيـونها
بمهنـدٍ مـاضي النـواجـدِ أحتفي
عربية تسقي الضجيج إذا دنتِ
يمـر زنب مثـل السَّـلافِ القـرقفِ
وتري شمائلها الشمولَ محاسناً
أريت لطائفهـا على السحر الخفي
تبـدي نظام حديثها لنـديمها
بفـواصـل بـرزت بغيـر تكلّفِ
لله كم أهـدت جمان كـلامهـا
لمسـامـع المتشـوّقِ المتشـوّفِ
لم أنسَ والأيـام تغدرُ بـالفتى
حسداً وما في الدهر من خـلٍّ وفَي

والشاعر يتذكر دوماً أنها من أسرة غنية ، اذ « تميس بحلة ذهبية » ، قد تلألأ من أثنائها جمالها اليوسفي ، تمشي بكبرياء خلال الحدائق وازهارها ، تتمايل بقامتها اللدنة ، مع هديل الحمام ، وقد ينتابها الخوف فتصفر حذراً ، ونفاجا بالشاعر يتضرع متوسلاً اليها بصورة متناهية في التذلل ، فيبيح لها أن تطأ خده بنعلها ، ويسمح لنفسه أن يلثم قدمها ، زيادة على لثم خديها ، ونسمعه وهو يبثها الشكوى فيستريح ، لكن الدهر لم يتركهما إلفين مجتمعين فسرعان ما يسلط عليهما الفرقة وآلامها ، فيلوذ « متحصناً بالسيد البر الحفي :

إذ انعمت والطلل يقطر طـرفهُ
فـوقَ الحـدائقِ كـالغمـام الاوطفِ
طـوراً تميسُ بحُلـةٍ ذهبيـةٍ
من تحتهـا بـرز الجمـال اليـوسفي
وتجُـر ما بين الـرياضِ ونَـورها
أذيـالهـا بتغطـرسٍ وتغطـرفِ
وتميـلُ بالقـد الرطيبِ وتنتثني
طـوراً لاصـواتِ الحمـام الهُتَّفِ
يصفـرُ أحمرُها لصوتِ جليّهـا
حـذراً عليَّ من العـدو المـرجفِ
ففرشتُ خدّي تحت موطىء نعلها
وغسلتُ وجهي بـالـدمـوعِ الـذرَّفِ
ولثمتُ أخمصها على رغمِ العدى
بفم يلثم خـدودهـا لا يكتفي
وبثثُهـا الشكـوى ومـا لاقيته
من لـوم لائمـةٍ ودهـر مجحفِ
وشفيتُ في ذاك المقامِ جوادحاً
أبـداً حـرارة نـارهـا لا تنطفي
فسطاً عليَّ الدهرُ سطوةَ ظالمٍ
بتفـرقٍ وتعنّفٍ وتعسّفِ
أخلى من آلخلّ الالوف منازلي
فغـدت مـرابعهـا كقـاعٍ صِفصفِ

وبقوله :

www.dorat-ghawas.com

وفررت من رِيَب الزمان وصَرْفِهِ
متحصناً بالسيد البرِّ الحفي

يدخل العشاري الى القسم الثاني من قصيدته ، وهو المقصود ، وأعني به المدح ، فالشاعر لم يتطلع الى غير الممدوح ، ونهى نفسه أن تطمح لسواه ، فهو العالم ، والسيد ذو المقام السامي ، من معدن أصيل ، وبيت شرف ، فهو من سلالة بيت النبوة .

وحسبت نفسي أن تسير لغيرهِ
فاذا انثنت للغير قلْتُ لها : قفي
ألقي العصا بجنابه وبيانهِ
وتمتعي بعلومهِ وتشرّفي
الجهبذ الحبر الحكيم وقن مقامهُ
غررٌ ضياءُ شموسها لا تختفي
مولى أنافَ على السِّماك مقامه
وسما على قمم النجوم الوُقفِ
من ضئضيء المجدِ الرفيع ومعدنِ
الشرف المنيع ونحبة البيت المشرفي
بيت النبوة والسيادة والتقى
من قبلهم بين الورى لم تُعْرَفِ
لم يخلق الرحمنُ مثلَ نبيهم
وكمصطفا هم في الورى لم يصطفِ
فهو همَ تاجُ الورى وهم العرى
فاعذر أخي إذا تشا أو عنّفِ

ثم يعرج الشاعر مستطرداً على مخاطبة جبريل (ع) ، ذاكراً وسائل تبليغه الوحي للرسول (ﷺ) وصور تذكره :

كم روحة لك يا (أمين) وغدوة
برحابهم وتلاوة بالمصحفِ
تاتي بدحية تارةً متشبهاً
وبوافد الاعراب الجلف الجفي
تخشى العواقب قبله فامنتها
إذ كان رحمة كلّ مرحوم كفى

ثم يعود الى ممدوحه بقوله :

ياسيد يعزى لبيت محمدٍ
لم أحص مدحكم بالف مصنفِ

وبعده يلوه بعراقة الممدوح نسبا أصيلًا شريفاً ، وتقوى آبائه ، ورجاحة عقولهم ، وغزارة علومهم ، وشجاعتهم ، وسخائهم ، وشهامتهم التي ورثوها من هاشم وقريش ، وبلاغتهم ، وصلابتهم ، وحدبهم على الفقراء ، وخاصة اليتامى :

إن قلت جدي خير من وطيءَ الثرى
قال الوجودُ صدقتَ يا نجلَ الوفى
وأن قلتَ أميْ خيرُ كلّ كريمةٍ
قال ابن حنبل قد صدقتَ فلا تفي
أو قلت آبائي القوانت كلُّ كريمةٍ
أهل المكارم والحجا لم تسرفِ
ما ورّثوه دراهماً معدودة
بل ورّثوه معارفاً لم تُعْرَفِ
فتراه قد كرعَ العلومَ وبثّها
في كلّ ناحية تليه وموقفِ
يجلي الشكوك إذ تفاقم أمرها
بذكائه المتوقد المتلقفِ
ولكم تخرّج فيه كلّ مهذبٍ
ومذوب مثل السنان مثقفِ
وسجيه في العالمين سخية
آمالها نجزت بغير تسوّفِ
وشهامة معهودة مِن هاشم
وحمية موروثة عن خندفِ
وبلاغة وبراعة ونجابة
وصلابة في دينه لا تنتفي
بجواره يحمى الضعيف اذا عدتْ
أيدي الزمان الجائر المستضعف
فيردّ روعتهُ بعزم ثاقبٍ
ويحلّ عقدته بتدبير خفي
ويسدّ خلته براحة محسن
فاقت على هطل الزمان الاوّلفِ
واذا رأى الايتام في عرصاته
أحنى حنو الوالد المتعطفِ
لو أنصفت أيامه لتلثمت
أقدامه لكنها لم تنصفِ

ويمهد لخاتمة القصيدة بالاعتذار عن عجزه في استيفاء محامدهم وفضائلهم ، بقوله :

الله استوف بعض مديحهِ
لكنني كالجالب المستطرفِ

www.dorat-ghawas.com

هل كيفَ أحصي النجمَ أو قطر الندى
بمحـابـري وصحـائفـي أو أحـرفـي
فلـو اشتغلت بوصفـه ومديحـه
« يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف »[٣٢]

ويسترسل في اطراء قصيدته جدة ، وصدقاً ، وعلواً ، اذ انها من وحي الممدوح ، طالباً حفظها من وشاية الحساد ، ثم يختمها ــ على عادته ــ بالدعاء :

لكنني عـودت طبعـي وصفـه
حتّـى يكـونَ محصبـي ومعـرفـي
فـاذا وقفت بـبـابـهِ متشغـرقـا
وصُـرفـتُ عـن أبـوابـه لـم أُصـرفِ
هـل كيف اصرف عن حماه وانني
بيـن المجـرّة والثـريـا مـوقفـي
يا نجل (فخري) أنت فخري فاستمع
منظـومـة صـدرت بـغيـر تكلـفِ
وردت عليك وانها ابنـة يـومهـا
نسجـت كثـوبٍ بـالنسيـم مـرفـرفِ
نـزلت (فعبـد الله) مهبط وحيهـا
بكـراً وطـوق سجـافـهـا لـم يكشـفِ
فـاحفظ جناها من ذرابة كـالشح
واحـرس حمـاهـا مـن سهـام مـعنفِ
لا زلـتَ مسقط كـلُّ نـوءٍ مغـدقَ
أبـداً وتـدعـى بـالاعـز الاشـرفِ

ومن حقنا ان نتساءل : هل اقتصر مدح العشاري الاجتماعي على شخصية عبد الله الفخري فقط؟

الجواب بطبيعة الحال لا يكون بالايجاب ، ولاسيما ان ستة نصوص[٣٣] تطالعنا في ديوانه ، كانت موجهة الى محمد أسعد بن عبد الله الفخري ، وخمسة نصوص[٣٤] مدح بها صديقه عبد الله آغا بن يوسف آغا ، واربعة نصوص[٣٥] لم يحدد أسماء ممدوحيها ، بل وجهت الى بعض الاصدقاء .

المدح الديني :

للمدح الديني في ديوان العشاري نصوص كثيرة في مقدمتها مدائح الرسول (ﷺ) ، إذ وجدت (١٠) نصوص[٣٦] ، وله في مدح علي بن أبي طالب (ع) (٤) نصوص[٣٧] ، وثمة نص واحد لكل من : الحسين ، وأخيه العباس (ع)[٣٨] ، والصحابي سلمان[٣٩] ، وعبد القادر الجيلي[٤٠] والسيد عبد الله العيد روسي[٤١] ، وبعض الاشراف[٤٢] .

للعشاري (١٠) نصوص في مدح الرسول (ﷺ) ولناخذ واحداً منها نموذجاً لمدحه الديني ، وليكن النص (١٠٦) ، وهو قصيدته الحميمة ، من بحر الطويل ، عدد أبياتها ثلاثون ، ومطلعها :[٤٣]

بكيت دماً لما سرى بارق الحمى
فـاسـرى الى قلبي حـديثـاً مكتمـا

مهد الشاعر لمدحه بمقدمة تقع في (١٥) بيتاً ، استعاد بها ذكريات تخيلها في ربوع جزيرة العرب ، محدداً معالم تلك الربوع باسماء معروفة ، طالما رددها الشعر العربي منها : رامة ، وذات الرقمتين ، والشعب اليماني ، مستعرضاً أشجانه واصواته الشجية ، ولاسيما حمامة « سلع » التي تبيت في « سفح الغوير » ترنم ألحانها ، وهو في العراق متيم ، ثم نسمعه يستنجد بمن يمكنه إبلاغ سلامه الى الحجاز وأهله ، وهنا اشارة واضحة الى مقام الرسول (ﷺ) ، وهو يطلب أن ينقل شوقه الذي يضارع شوق محب قضت الظروف بان يفارق من أحب ، فيقول :

ذكـرني عيشاً تقضى بـرامـة
وعصـراً بـذات الـرقمين تقـدمـا
ولـم أنسـهـا زدت لـوعـةً
وشـوقاً الى الشِّعْبِ اليمـاني فيهما
مغانٍ ، رياضُ العيش فيها نضيرة
وغصنُ شبـابي كان فيهـا مقجومـا
كستها عوادي المزن ثوباً مطرّزاً
فـاضحى أديمُ الارضِ منها منمنمـا
إذا ما بكى جفن الغَمام بارضها
زهـا روضهـا من دمعـهِ وتبسمـا
ولم تزل الورقاء والليلَ فـاحمٌ
تـرنّدُ أشجـانـاً وصـوتفـا مـوخمـاً
تشير الى الاُخرى ولم تدرِ أنني
أشـد ولـوعـاً بـالصبـابـةِ منهمـا
حمامة سَلع اقصري إنني فتى
اذا رنمـت ورقـاءُ نجـد تـرنمـا
تبتين في تفسح الغوير وانني
أبيـتُ بـاكتـاف الـعـراق متيمـا
إذا نحت والاجفان منك قريرة
فما حال جفنٍ قـد غدا معـه دما

www.dorat-ghawas.com

ألا مبلغاً عني الحجاز وأهلهُ
أُهَيْلُ الحمى عني سلاماً مسلما
وشوقاً بقلبي كلما هبت الصَّبا
تسعر منها حرّه فتصير ما
يحن حنين الإلف فارق إلفهُ
اذا حكمت أيدي النوائب فيهما
وأصبو الى عُرْبٍ بظَمياءَ خيّموا
وحبّهم ما بين جبنى خيما

ويتلخص من المقدمة الى مدح الرسول (ﷺ) بقوله :

وما الدار قصدي ليس قصدي سوى فتى
عليه إله العرشِ صلّى وسلّما

ثم يشرع في ذكر خصال الرسول (ﷺ) ، فهو خاتم من حاز الفضائل من الرسل والانبياء ، نور وجهه قد بدد ظلمات الشرك والأوثان ، محق الكفر بشمس هداه ، فهو الحق الذي فرّق الظلم ، وهو سيف الشريعة الباتر ، وهو الكريم المعطاء ، ونو الفضل يعز تقويم مقداره ، وهو إمام النبيين ، وسيد الاكرمين ، وهو القمر ، وأصحابه الكرام نجوم فرّقها في الكون ، لم يستجب لمغريات القوم ، شجاع ، جيشه قهر جيوش أعدائه ، فحاز سحر عصا موسى ، وعزم عيسى(ع) ، يتقحم سوح المعارك الحامية ، فاذا هي بردٌ وسلام كنار ابراهيم (ع) ، علمه غزير شفى ظما العارفين :

هوالسيد الفرد الاخير الذي حوى
باول يومٍ فضلَ مَنْ قد تقدّما
وبدرٌ أضاءَ الكونَ من نور وجهه
وقد كان بالاوثان والشركِ مظلما
وشمسُ هدًى قد عاين الكفر عينها
واكنه لما رأي نوَهَا عمي
وطالع حق مزّق الحيف نجمه
فاضحى حساماً للشريعةِ مخذما
كريمٌ متى صافحته نلعت نائلاً
وفضلاً عميماً جلَّ أن يتقوما
امام النبيين الكرام وسيدٌ
الى الحق في فصل القضاء تقدّما
ولمن عدّت القومُ الكرامُ فانّه
يكونُ أجلَّ العالمين وأكرما
هو القمر الأعلى الذي ضم صحبهُ
وفرقهم في سائر الكونِ أنجما
وكم راودتهُ الشمُّ عن نفسه فما
رأت قلبه إلا غنياً مكرّما
وربَّ حصًى جيش من الشرك اقصدت
ففاقت عصا موسى وعزمَ ابن مريم
وكم نار حرب خاضها صار حَرُّها
كما نار إبراهيم أهدى وأسلما
وأحيا قلوبَ العرفين بهديهِ
وروّى به بعد الحرارة الظما

ثم يختم قصيدته بالصلاة والسلام الدائمين مدى الدهر ، تلك الصلاة التي يشمل عطرها آل الرسول وصحبه والعباد الصالحين كافة :

عليهِ صلاةُ الله ثمَّ سلامهُ
مدى الدهر ما حاد حدا وترنما
صلاة يعمّ الآل والصحب نشرها
وكلَّ العبادِ الصالحين تكرّما

مدح العلماء :

في حديثنا عن شيوخ العشاري ذكرنا العلامة عبد الرحمن السويدي ، وحين ألف هذا العلامة كتابه : « الدرة السنية على شرح الحضرمية » وجدنا تلميذه العشاري يبادر الى تقريظ ذلك الكتاب ، بمقطوعة من بحر الطويل ، استهلها بالمطلع :

جَزَى الله عنّي مَنْ أضيف الى اسمه
بافضل ما يجزى أولي العلم والتُّقوى(٤٤)

وهذا دعاء صريح ، لكنه لا يخلو من تذويه بعلم شيخه السويدي وتقواه ، وهما صفتان تُعدّان من أروع ما يمدح به إنسان ؛ فاذا حاز المرء علماً حصّنته تقوى فقد وهب الخير العميم ، ثم يؤكد الشاعر دعاءه بقوله :

ولا زال معمور الجنان موفقاً
مآثره ما بين أهل الهدى تُرْوَى

وماذا يبغي الانسان حين يصنف كتاباً سوى أن تذاع أفكاره ، وتروى آراؤه ، ويحالفه التوفيق ، وفؤاده معمور بالايمان ؟

www.dorat-ghawas.com

وكان الشاعر في البيت الثالث يحاول تعريف مضمون كتاب شيخه ، فاذا به قد قرب الى الأمام ما كان بعيداً عن ادراكها ، وسهل بأسلوبه السلس ما خفي من أفكار الهيثمي ؛ إذ أشبع الموضوع بحثاً وتحقيقاً ، مقتدياً بأبيهِ الشيخ عبد الله السويدي (١١٠٤ ــ ١١٧٤هـ) ، بتأييد من الله تعالى ، فالأب والابن نيّران يهتدى بهما الخلق ، ومن يهتد بهما ينج من البلوى ، ثم يتخلص نحو الخاتمة ، قاطعاً إياها بالدعاء لهما أن يرعاها الرحمن رعاية دائمة :

لقد فكَّ بالتعليق ما كانَ مشكلًا
بعيداً عن الاذهانِ بالرتبة القصوى
وأبرزَ ما أخفاهُ عالمُ هيثمٍ
بأرشق تعبيرٍ مصونٍ عن الدعوى
سقاهُ من التحقيق ما طاب ورده
فكم جائع غذى وظامٍ به أروى
بوالدهِ الحبرِ الهمامِ قد اقتدى
فايدهُ مَنْ يعلمُ السرَّ والنجوى
هما نيّرانا نهتدى بهداهما
ومَن يهتد بالحق ينجُ من البلوى
فحياهما الرحمن ما انقضَّ كوكبٌ
وما ترجمت عينُ المحبِّ من الشكوى

ويقدم لنا ديوان العشاري نصاً ثانياً يمدحُ به العلامة أبا الفتح إسماعيل بن مصطفى الكلنبوي (ت ١٢٠٥هـ) ، وهو من معاصري الشاعر ، ذاكراً كتابه : « البرهان في علم الميزان » .

تتكون القصيدة من (٣٠) ثلاثين بيتاً ، رائية من بحر الكامل ، مطلعها :

شرفٌ تشيّدهُ يدُ الاقدارِ
وعُلًى بهِ يعلو القضاء الجاري[٤٥]

المدح السياسي :

نقصد بالمدح السياسي ذلك الشعر الموجه الى ذوي السلطة ، من أمراء ، ووزراء ، وولاة ، وتطالعنا في هذا المجال أسماء بارزة ، لها دورها في أحداث العراق ، ومجالاته السياسية ، سواء اولئك الذين كانوا في السلطة ، كالوالي عمر باشا[٤٦] ، ووزير الموصل عبد الفتاح الجليلي[٤٧] ، والوزير حسن باشا[٤٨] ، وامراء الحلة آل عبد الجليل[٤٩] ، أم ممن كانوا من رؤساء العشائر المؤثرين في مجرى الإحداث كآل الشاوي .

ولنلتقط واحدة من المدائح في آل عبد الجليل ، أمراء الحلة[٥٠] ، وهي لامية ، من بحر الطويل ، تقع في ثلاثين بيتاً ، مطلعها ،

مقامكَ يا ابنَ الاكرمين جليلُ
ومجدُكَ ، ما بينَ الانامِ ، ثقيلُ

ونلاحظ الشاعر ، في هذا النص ، قد هجم على المدح منذ المطلع ، متجاوزاً المقدمة الغزلية ، وغير الغزلية ، مباشراً تعداد خصال ممدوحه ، مستهلًا إياها بالكرم ، مكرّساً له الابيات الأربعة الاتية :

لكفّكَ غيثٌ قد أطلَّ على الورَى
إذا شحّتِ الانواءُ فهو يسيلُ
وكم لك جودٌ قد حكى الجودَ والحيا
وطولٌ على وَبَلِ الغمام يطولُ
تضاءلَ عن علياك وصفُ اولي النُّهى
وأكثر وصفٍ في علاك قليلُ
وكيفَ وفي باعِ الثناء مدى المدى
قصور وفي أدنى كمالِكَ طولُ

ثم يأتي التنويه بمكارم أخلاق الممدوح ! أخلاق سامية سامقة ، لا يدانيها شيء ، وافعال حميدة ، وفضائل غرّاء ، ورثها الممدوح عن أسلافه العظام ، وهي سجايا ترفعت عن الفعال الذميمة ، حتى حار الحاسدون في هجائهم إياه ، ثم يضمن بيتاً مشهوراً للسموأل :

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عِرضُه
فكلُّ رداء يرتديهِ جميلُ

أما الابيات فهي :

مكارمُ أخلاق تسامتَ نجومُها
فليس اليها ما حييت وصولُ
محاسن أفعال وغرّ فضائل
نمتها فروع للعلى وأصولُ
توزنتها عن كابرٍ بعد كابرٍ
فسارت بها ريحُ الصّبا وقبول
تنزهت طبعاً عن فعالٍ ذميمة
فماذا عليك الحاسدون تقول

« إذا المرءُ .....

..... »

www.dorat-ghawas.com

وبعدها يخلص الشاعر الى همة ممدوحه ، وشجاعته التي ورثها عن أبيه الذي أرعب أسود الغاب :

لـكَ الهِمّةُ العلياء والساعدُ الذي
تجـول بـه يـوم الـوغى وتصـول
تهـابُ أيـاكَ الاسْدُ وهي بغـابها
فتـرنـو إليـهِ والنـواظـرُ حـول

ثم يفرج على آرائه السديدة التي ذاعت شهرتها في الخافقين ، فهو كالصاحب ابن عباد ، وابن العميد ، يسوس الرعية بحكمةٍ ورويةٍ ، تقضيان على مصائب الدهر :

تنـور من آرائـه الملـك فـانتمى
وأخبـاره في الخـافقين تجـولُ
هـو (الصـاحب) المـولى (العميـد) الـذي به
عن الخلق ريبُ الحـادثـات يـزولُ
وكم لـك من إفضـاله نـور سؤدد
إذا مـا بـدا فـالنيـرات أفعـل
وكم ضيغم ألجمتـه السيف مصلتاً
فـأصبـح من فـوق التـراب يميـل
فيـا لـك من سيف كـأنَّ بحـدّه
نفـوس الأسـود الضـاريـات تسيـل
تعلم منَ كفيـك أن يذثر الطـلا
بضـرب يبين الهـام وهـو قليـل

وبعد أن فرغ الشاعر من اطرائه الممدوح ، منوهاً بشجاعته نجده يلتفت الى (بني يوسف) آل عبد الجليل ، ناعتاً إياهم بالمكرمات ، وأنهم موضع فخر العاليات من السجايا المنتقاة . ثم يضمن بيتاً للنابغة الذبياني[٥١] ، ناقلاً إياه الى صيغة الخطاب ، مع تقديم وتاخير في عجز البيت ، ليتناسب مع القافية :

(بني يوسف) يا من بهم تفخر العلى
وفيهم أيـادي المكـرمـاتِ تطـولُ
كم سـؤدد جم وقـدر معظم
وفعـل لكـل العـالمين جميـلُ
« ولا عيب فيكم غيـر أن سيوفكم »
بهـا من قـراع الـدارعين فلـول
ولا شين إلّا انكم أنجمُ الهـدى
وأفعـالكم للمكـرمـات حجـولُ
ولا هجنـة إلّا أيـادٍ جـزيلـة
وجـود عـريض في الانـام طـويـلُ

وانسياقاً مع منهجه في مدائحه ختم قصيدته بالدعاء :

فـلا زلتم أعلى الخـلائق رتبـةً
لتعلـو مفـان للنـدى وطلـولُ
مدى الدهرِ ما غَنَتْ على الدوح هُتَّفٌ
وقال لنا حـادي الركـائبِ قيلوا[٥٢]

الرثاء :

وغرض آخر اتخذه العشاري وسيلة وصال بمن يعرفهم ، فمن سبعة نصوص ، وجدنا اثنين في رثاء عبد الله الشاوي ، واثنين في رثاء السيدة زينب عقيلة صديقه عبد الله الفخري ، ونصاً رثى به السيد صالح بن خليل ، وآخر في رثاء بعض أصحابه ، دون تحديد ، ومسك الختام نص في رثاء الحسين (ع) نظمه حين زار مرقده المشرف سنة ١١٨٤ هـ .

الرثاء الديني :

وتلك المرثية طويلة نسبياً . فعدة أبياتها (٣٢) اثنان وثلاثون ، من الطويل . والعشاري ، من المطلع ، يذكرنا بالطُفّ ، الموقع الذي دارت عليه رحى ماساة الحسين (ع) في صراعه مع خصومه ، فكان الشاعر يريد أن يستنفر الاذهان ، ويمهد لسرد الاحزان ، التي صاغها باسلوب الخطاب ، الذي يصلح أن يكون مناجاة للنفس ، كما هو صالح لأن يوجه الى آخر يجرده الشاعر من ذاته ، ليبثه أشجانه :

هـو الطفّ فـأجعـل فضـة الـدمـع عسجدا
وصُـغ لـك فـولاذَ الغـرامِ مهنّـدا
ويسترسل في الخطاب ،
ورِدْ منها الاحزانِ صِرفاً وكرّرَنْ
حـديثـاً لجـرانِ الطفـوفِ مجـدّداً
وما القلب إلّا مضغةٌ جد بقطعها
ودعها فداء السبط روحي له الفدا
أترضى حياةً بعد ما مات سيدٌ
غـدا جدّه المختـار للنـاس سيـدا
أترضى اكتمال الجفن بعد مصابه
وجفن التقى والدين قد بـات أرمدا
خذ النوح في ذاك المصاب عزيمة
الى الفوز وأجعل صهوة الحزنِ مقعدا

www.dorat-ghawas.com

بكت رزءَة الاملاك والافق شاهدٌ
ألم تَـرَهُ من دمعـه قـد تـوردا

ليخلص في البيت الثامن الى ابتهالات يرفعها الى الحسين (ع) ، يضمنها مشاعره ، تستغرق باقي أبيات المرثية ، ولكنه في البيتين الثامن عشر والتاسع عشر يتحول من الخطاب المفرد الى الجمع، ثم يكشف غضبه في البيت العشرين :

فيا فرقداً ضاءَ الوجودُ بنـورهِ
فـلا بعـده نلقى ضيـاءً وفـرقـدا
وريحانة طابَ الوجودُ بنشرهـا
بهـا عبثت أيـدي الطغـاةِ تعمـدا
ودرّة علمٍ قد أضاءت فاصبحت
تمـانعهـا الاوغـاد منعـاً مجـرّداً
بروحي منها منظراً بات في الثرى
ويا طالما قد بات في حجر أحمدا
وثغراً ، فم المختار مصّ رضابَهُ
وهـذا يـزيـد بـالقضيب لـه غـدا
ورأساً يد الزهراء كانت وسادة
لـه فغدا بـالتـراب ظلماً موسّـدا
لئن أفسدوا دنياك يا ابن محمدٍ
سيعلم أهـل الظلم منـزلهم غـدا
لئـام أتـوا بـالظلم طبعـاً وإنمـا
« لكـلّ امرىء من دهـرهِ ما تعـوّدا
وحقك ما هـذا المصاب بضائرٍ
لانَّ الورى والخلق لم يخلقوا سدى
فـالبسكَ الـرحمنُ ثوبَ شهـادةٍ
والبسهم خـزياً يـدوم مدى المـدى

لبستم كساءِ المجد وهو اشارة
بـانَّ لكم مجـداً طـويـلاً مخلـداً
وطهـرّكم ربُّ العُلى في كتابـهِ
وقـرّر كـلّ المسلمين واشهـدا
أتنكرُ هذا يـا يزيـد وليس ذا
بـاولِ قبحٍ منـك ، يا غـادرُ ـ بـدا

ليبدأ في البيت الحادي والعشرين متضرعاً الى « بني المصطفى » ، باسطاً حاله ، لائذاً بحماهم ، ناشداً حمايتهم اياه من « أذى الدهر » :

بني المصطفى عبدٌ لكم ودُّهُ صفا
فـاضحى غـذاءَ القلـوبِ ومـوردا
غـريب عن الاوطان نـاءٍ فؤاده
تضـرّم من نـار الاسى وتـوقّـدا
ألمّ به خطبٌ من الدهـر مظلمٌ
تحمّـل من أكـداره وتقلـدا
نضا سيفه في وجهـهِ متمدداً
وجـرّدهُ عن حقـه فتجـردا
ببـابكم ألقي العصـا وحـريمكم
أمـان اذا دهـرٌ طغى وتمـرّدا
أتاكم صريخاً من ذنوب تواترت
على ظهرهِ في اليوم مثنى ومفردا
أتـاكم ليستجدي النـوال لانكم
كـرام نداكم يسبق الغيث والندى
أتـاكم أتاكم يـا سلالـة حيدر
كسيـراً يناديكم وقـد أعلن النـدا
ثم يخصّص الحسين (ع) من بني المصطفى ، يناشده الحماية من صرف الزمان المؤذية :

حسينُ أقلني من زمان شرابـه
حميم وغسلين اذا مـا صفـا صـدا
على جدّك المختار صلّى إلهُنا
وسلم مـا حـاد الى أرضـه حـدا
وعمّ بهـا آلاً وصحباً وتـابعـاً
لهم ومحبـاً للجميـع مـوحـداً

هذه مرثية واعية للدوافع الحقيقية الكامنة في استشهاد الحسين (ع) لم تُنْزَفْ من خلال مفرداتها الدموع مدراراً ، وإلّا لصارت قصيدة بكاء وعويل ، للتكلف نصيب كبير في نظمها ، بعيدة عن الصدق ، ولكن العشاري ـ وهو المدرك لمكانة الحسين (ع) ، والمستوعب لمواقفه في الدفاع عن الحق ـ ليتفهم مصير سبط الرسول (ﷺ) ويدري أن شهيداً مثله لا ينبغي للعشاري أن يبكي أو يتباكى مستدراً دموع الآخرين ، بل عليه أن يقف بخشوع أمام قدسية الاستشهاد الحسيني ، فهو من العظمة والمنزلة ما يدفع أمثال الشاعر الى التضرع به ، واللجوء اليه .

لذا كانت المعاني تنساب في أثناء أبيات المرثية بهدوء ، وتتراءى الأفكار بوقار ، يتناسب مع جلال المدالة ، وعظم التضحية .

www.dorat-ghawas.com

الرثاء السياسي :

ورثاء العشاري لا يخلو من موقف سياسي ، وجرأة متناهية ؛ فلم يكن مقتل عبد الله الشاوي حدثاً عابراً ، معزولاً عن الاحداث السياسية في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ العراق ، وبخاصة أن الشاوي هذا من رؤساء العشائر ذات الثقل المؤثر في ميدان التوازنات السياسية ، والشاوي ، فوق كل ذلك ، شخصية محببة الى نفوس العراقيين قاطبة ، وربما قد تطلعت إليه أنظارهم في إنقاذهم من براثن التسلط الاجنبي ؛ لما توسموه فيه من أصالة نسب ، وشجاعة قلب ، وقوة عزيمة ، وإباء وحب للحرية .

إن والي بغداد عمر باشا ، وبعد إطفاء فتنة البصرة ، قد قتل عبد الله الشاوي متهماً إياه بالتواطؤ مع خصومه أمراء المنتفق ، وذلك سنة ١١٨٣ هـ ، وحين ثار ولداه : سلمان وسلطان ؛ طلباً لثار أبيهما لم يتردد عمر باشا في قتلهما ، بل قتل سلطان بيده .

لذا تعد مرثية العشاري في عبد الله الشاوي موقفاً سياسياً جريئاً ، وينبغي ألّا يستحوذ علينا الاستغراب إذا وجدنا الشاعر قد أصفح عن ذكر المرثي ، او ذكر عمر باشا ، ولو انها لم تخل من التعويض بوالي بغداد ، ونعته بابشع الصفات ، كالكلب ، والذئب ، ويبدو أنها قد نظمت وعمر باشا ما زال والياً ، يملك السلطة والبطش .

ومع ذلك فالمرثية صرخة مفهومة ، شخصت ميول العشاري السياسية بوضوح ، فالشاعر مع رجالات العراق الاحرار ، وحرب على الغرباء المتسلطين على البلاد .

المرثية بائية[٥٣] ، من بحر الطويل ، أبياتها (٤٢) اثنان واربعون ، استهلها بمطلع باكٍ ، يكتم في ألفاظه صراخاً حاداً ، وأسىً عميقاً .

قَضَى الذَّنْبُ مَنْ لـــولاهُ مـــا عُـــرِفَ الذَّنْبُ

وماتَ الذي في موتهِ نـزلَ الخَطْبُ

هكذا ، ومن أول وهلة ، هجم العشاري على الموضوع ، ثم قرن بين وجود المرثي ووجود الكمال والمجد ، ولكنهما ضاعا مذ رحل الشاوي ، فترك في القلب لوعة ، فالعيون لا ترقا دموعها :

قَضَى مَن بهِ عمرُ الكمال قد انقضى

وغارتْ عيونُ المجد وانصدعَ القلبُ

قَضَى ورمى في العينِ والقلبِ لوعةً

فـلا دمعُها يرقا ولا نارهُ تخبو

ثم ينعت مَنْ اغتال الشاوي بالذئب ، مشبهاً الفقيد بيوسف (ع) ، ولو انه لم يأكله الذئب وانما يشتركان في التآمر عليهما :

حَكَى يوسف إذ راحَ يرتعُ بينهم

فعاثوا به ، واغتال مهجتَهُ الذئبُ

وذراه يفضح الظلم الذي اتسع واستشرى إثر اغتيال الشاوي .

تلاطم بحرُ الظلمِ بعد اغتياله

وضاقَ بنا مِن بعدهِ المنزلُ الـرحبُ

ثم يقرر أن هلاك الاسد ، ويعني الشاوي ، يتيح المجال للكلب أن يحكم ويقصد الوالي عمر باشا :

إذا الاسدُ الورديُّ أصبحَ هالكاً

لعمـرك فليحكم بما شـاءهُ الكلبُ

ويؤكد هذا المعنى ، أنه كان يتصدى للحاكمين ، فيموتون خوفاً منه وفزعاً :

نعم كـانَ كيتا كلّما هزَّ ناجَ

هَوَتْ كفّه فاغتالـه الخوفُ والـرعبُ

ويخلص الى أن يتأسى بمصائر الغابرين من الامم والملوك بقوله :

فأينَ ملوك الارضِ والسادةُ الالى

بـــذكـــرهم تســـري الكتبُ

وأين بنو ساسان من آل فارس

وقيصرُ بصرى والتبـابعةُ العُـزبُ

ثم يجيبُ عن تساؤله :

طوتهم يدُ البينِ المشتّ فاصبحوا

رهـائنَ لا خيـلَ تقـادُ ولا نجبُ

وكم أمّةٍ فاتتْ وقد جاءَ مثلُها

إذا ما مضَى سربٌ أتى بعدهُ سربُ

هذه ــ اذن ــ هي الحياة وسنتها في الخلق ؛ أحوال متغيرة ، ووعود كاذبة :

إلا هكذا الدنيا ، وذا شان أهليها

فـاحوالها زورٌ ، وأقوالها كذبُ

ثم يتحول الى المرثي ، فهو قلب المكارم والعلى ، إن كان لها جسم وروح ، فكأنّ ديمومتها لا تعمر إلا بوجوده ، فهو محورها ، وعلة وجودها ، اذا ضاعت أسباب بقائها :

لئن كان جسماً للمكارم والعُلى

وكـان لها روحاً ، فـانت لهـا قلبُ

www.dorat-ghawas.com

وإنْ قطبـــاً للفضـائـل والنهى
فـانت لها من بعـد فقـدانـهِ قطبُ

كرم الفقيد أعمّ من كرم حاتم الطائي :

ومـا حـاتم الطـــائي إلا سفينـةٌ
ببحرك ، أو طلٌ جـرتْ بعدَهُ سحبُ

وقد عاش في كنف الفقيد عيال كثيرون ، فهو السيف الذي يقطع دابر الفقر :

عيـال وأطفالٌ جهلنـا عـدادهم
بـافضـالكم ربّـوا وفي ظلكم شبّـوا
فانّك سيفٌ يقطـعُ الفقرَ حـدُّه
وإن كنت قد عريتَ حاشاكَ لا تنبو

لذا ناصبتك الدنيا العداء ، ونظرت اليك بعين السخط ، وهذا ديدنها مع الاحرار وكفاها خزياً أنها تخاصم أمثالك ، والباهلي ، ويعني عمر باشا ، فيها يتعالى :

رَنَتْ نحوكَ الدنيا بعينٍ بغيضةٍ
وذاكَ مـع الحـرِّ الكـــريم لهـا دأبُ

.....

.....

كفاها هواناً أن مثلك قد غدا
لهـا غـرضـاً والبـاهلي بهـا يـربـــو

واخيراً يختم مرثيته بالدعاء :

فـلا زلتَ فضـل منيـــر وسـؤدد
تضييء له الاكناف والشـرقُ والغربُ
ولا بلغت منك الحواسد قصدها
مدى الدهر والاعصار ما هزت القصب

ليس من معان غير مألوفة في تلك الابيات المنتقاة من مرثية العشاري في عبد الله الشاوي ، فقد زخرت مراثي الشعراء السابقين بذات الصور والقيم ، والتفجع هو التفجع ، والاسى هو الاسى ، وليس في المرثية خصوصية محددة ، لولا الاشارة البعيدة الى الاغتيال ، لصارت صالحة لكل فقيد ، فالخصال : الشجاعة ، والكرم ... ، ثم التاسي بالغابرين ، ولوم الدنيا الغادرة ... ، تتقحم كل مرثية مهما كانت شخصية المرثي وطبائعه ،

تنتهي المرثية بالدعاء الغريب ، فكان الشاعر يخاطب حيا باقياً ذكره ، وأحسب أن في الامر فكرة طريفة ؛ فالعشاري خالداً بصنيعه ، ومواقفه الوطنية ، وهذا ــ بحد ذاته ــ شيء جدير بالانتباه .

الرثاء الاجتماعي :

وثمة نوع آخر من الرثاء عالجه العشاري ، وفيه قدر كبير من الوفاء الذي طبع أخلاقه ، انه الرثاء الاجتماعي ، ففي ديوانه ثلاثة نصوص في رثاء فريق من أصحابه ، أو من له صلة ما بهم ، فثمة نصان في رثاء السيدة زينب[٥٤] ، زوج صديقه الحميم عبد الله الفخري ، أولهما : قصيدة رائية ، من بحر الطويل ، أبياتها (٤٦) ستة وأربعون ، وثانيهما : مقطوعة من (٦) سة أبيات ، من بحر الطويل أيضاً ، وواضح أن الشاعر قد قصد بنظمها تاريخ وفاة الفقيد ، وهو سنة ١١٨٠هـ ، فانه ختمها بقوله :

وقـــد رجعت مـرضيـة لالهها
فارّخ « لرضـوان جلي مآبهـا »

أما النص الثالث فمرثية من بحر الكامل ، متكونة من (٢٢) اثنين وعشرين بيتاً ، قالها في رثاء بعض أصدقائه[٥٥] ، دون أن يذكر له اسماً .

ونحن لا نزعم أن العشاري كان صادق اللوعة في مراثيه الثلاث ، ولكنه ، بلا ريب قد انتابه شيء من الاسف والحزن ، إن لم يكن ذلك مجاراة لمشاعر أصدقائه ، ففي الاقل ، تذكراً للمصير المحتوم الذي يعاني الانسان منه قلقاً مقيماً ، سواء أشعر بذلك أم لم يشعر ؟ فما يؤرقنا دوماً هو احساسنا بالنهاية الحتمية ، فحقيقة الرحيل الابدي مما لا سبيل الى نسيانها ، وطالماأثارت كوامن الاحزان في أنفسنا ، ولا سيما عند مشاهد الموت ، وبخاصة الاقرباء والاصدقاء .

ولناخذ النص الذي رثى به السيدة زيلب ، ربيبة الاسرة الكريمة ، ذات المال والدين ، قد كانت محجوبة عن الانظار ، لمْ يعرف لها ذكر إلا بعد التحاقها بآل الفخري .

بحارُ ندًى من بعضها نبعَ البحرُ
ونـور هدًى من ضـوئه طلـعَ الفجرُ
تبدّت وكانت في الوجود ضميمة
بآل (بني فخر) لها عرف الـذكر

ثم يخلص الشاعر الى مدح آل الفخري بـ« ١٨ » ثمانية عشر بيتاً ، ليتخذ من ستة أبيات ، ابتداءً من العشرين ، فسيحة للحديث عن الفقيدة . التي علّمه موتها

www.dorat-ghawas.com

امكان ان يُفجع المجد بمثلها ، درّة محمية في خدرها ، انها وحيدة أسرتها وعشيرتها ، فكانت موضع عنايتهم ، ومركز اعزازهم ، ولقد أخذوا بفتةً حين تخطفتها المنية :

ولم أدر قبل البين أن يُفجع العلى
بـــدرةِ خدر طـالمـا صـانهـا الخـدرُ
فريدة قـــوم قد انيطت قلـوبهم
عليهـــا كما نيطت بـافلاكهـا الزهـرُ
غـــذوها بـالبانِ القلـوب ومهّدوا
بساطاً لها في القلب يعرفهُ الصدرُ
فكم سهرت منْ دونها أعينٌ لهم
حـذاراً عليهـا أن يقـوم بهـا ذعـرُ
وحيـــــدة أعمـام لهـــا وعشيـرة
حنـــايا عليهـا أن يحاولهـا الـدهـر
فما شعروا إلا وقـــد علقت بها
أنـــامله والـدهـر مـا شـانـه الغـدر

وفي بيتين تاليين يصور الشاعر وقع النعي على اهلها ، فهم حيارى ، لا شعور ، ولا تفكير ، بل عيون حمر تسبل دموعها ، فقد انقضت عليهم مصائب بدّدت صبرهم ، فمثل فقيدتهم ، يصعب ان يتصابر أهلها لفراقها :

فامسوا حيارى لا شعور ولا حجىً
سـوى أعينٍ تجـري وأدمعهـا حمـرُ
مصـــائب سودُ ادركتهم فمـزّقت
عرى صبرهم والصبر عن مثلها صبرُ

ثم يتوجه الشاعر نحو الفقيدة ، فهي شمس ... وهي عقد لجيد المجد ، بكتها الزهراء ، ونساء أسرتها ورجالها ، والشمس والبدر أيضاً ، بل الناس كلهم حزنوا لفقدها .

ثم يخصص خمسة أبيات يخاطب بها عينيه بقوله .

« أعيني جودا بالبكاء ... » في الاول : لدرة ، وبالثاني : لحرة ، وبالثالث : لدمية ، بالرابع بحرقة ، بالخامس يطلب من عينيه أن تجددا الحزن ، لينتهي الى بيتين اخرين يستهل كل واحد منهما بقوله : سابكيك ... تتقطر منهما دموع الشكل ... ليختم المرثية أخيراً بالدعاء الذي وظف له بيتين كذلك ، في اولها يدعو على طريقة الاقدمين أن يغمر قبرها المطر لانه حديقة فردوس ، وفي الثاني يدعو لها بالخلود في الجنة ، مع الحور والولدان ، بالثياب الخضر :

سقـاها الحيـا مِن حرّةٍ إن قبـرَها
حـــديقـــةُ فـــردوسٍ ونزّاتـــهُ عطـــرُ
ولا بـرحتْ في جنـةِ الخلـــدِ تنثني
لها الحورُ والولدان والحلل والخضرُ

وغرض آخر ألممنا بجوانبه الرئيسة ، له علاقات وطيدة بالمدح ، الغرض الاساس في ديوان العشاري .

فليس الرثاء ببعيد عنه ، ولاسيما ان دوافعهما تكاد تكون متقاربة عند الشاعر ، فكما لاحظنا على المدح أنواعاً : الديني ، والسياسي ، والاجتماعي ، كذلك وجدنا الرثاء ، فكلا الغرضين استجابة لظروف العشاري ، وأثرت فيه وترددت اصداؤها في شعره .

الغزل :

قليل شعر الغزل في ديوان العشاري ، إذا استثنينا مقدمات قصائده ، فلقد وقفت على ما يقارب اربعة نصوص في الغزل المستقل ، ونحن ، حين نوزنها مع مقدمات مدائحه ، لا نجد فرقا ذا أهمية ، من حيث المعاني ، والقيم والاساليب ، حتى ليمكننا القول : إن تلك الغزليات قد أعدت سلفاً ؛ لتتخذ مقدمات لمدائح متوقعة .

والشيء المميز الذي نسجله للشاعر هو خلو ديوانه من الغزل المنحرف ، في وقت قرأناه في دواوين الآخرين ، سبقوه ، أو عاصروه ، أو جاؤوا بعده ، وحسبنا في هذا دليلًا على عفته ، ورصانة أخلاقه .

ولناخذ نموذجاً من هذا الغرض[٥٦] ، وليكن قصيدته الميمية ذات السبعة عشر بيتاً ، من بحر الطويل ، خاطب بمطلعها النسيم ؛ عساه يكرّر رسالة لامرأة اسمها « سعدى » :

ألا يا نسيمَ الصبحِ كرّرْ رسالةً
لسُعْـــدَى ، وبلِّـــغْ ـ يـــا نسيمُ ـ سلامها

ثم يتخلص الى استقراء مفاتنها ؛ جفونها أرهقها الرقاد ، واتخذت من عيونها غمداً لسيف نظراتها ، ويريد من النسيم أن يعابث خصلات صدغها ، ويلثمها قبل توجيه اللوم ، ويطالبه أن يمرّ على ثناياها التي لم يرتشف خمرها منذ ثلاثين يوماً ، وأن يشم خدودها التي عهد الشاعر فيها عبق الرند والبشام ، وليبلغ سعدى أنه ترك العشاري يتحرّق شوقاً وهياماً :

www.dorat-ghawas.com

تجدها وقد أضنى الرقادُ جفونَها
وأغمـد في تلك العيونِ حسامَها
وإن جئتها فأعبث بعقرب صدغها
وقبِّـل لنا قبـلَ الملام لثـامَها
ومرّ على تلك الثنايا فانّ لي
ثـلاثين يـوماً مـا شـربتُ مُـدامَهـا
وشمَّ لنـا وَرْدَ الخدود فطالما
شممتُ بـانفي رَنْـدَهـا وبشامهـا
وقُـلْ إنني خلفتُ خلفي متيّماً
بـاحشائـهِ الأشواق تـوري ضـرامهـا
يقول وقد أرخى الظلامُ ستورَهُ
وشـدّ بـأوتـادِ النجـومِ خطـامهـا

وينقل إليها عتاب الشاعر ؛ إذ تنام مِلْء جفونها ، وهو ساهر مقرّح الجفون ، تسفح عيناه الدموع على خدّيه ، مهجته حَرّى ، يكابد الشوق حتى السقام .

تنـامينَ والأجفانُ منّي قـريحةٌ
تصبُّ على سفـحِ الخدود سجـامَها
ولي مهجةٌ حرّ البعـاد اثابهـا
وضـاعف شـوقي ضعفهـا وسقـامهـا

ثم يلتفت الي سُعْدَى ، يبثها أشجان قلبه ، التي تعذّر عليه اخفاؤها ، وعبرة تفضح عاشقاً أضرّ به البعاد ، ويناشد أن تطفىء أوار شوقه بالرضاب .

ذكرتُك يا سعدى وللقلب لوعةٌ
اذا رمت أخفيهـا أثـارت غـرامهـا
وعبرة مشتاق أضـر به النـوى
فهل سلسبيل الثغر يطفي أوامها

ويقسم بالذي كتب عليهما الفراق ، وجعل منازلها نائية عنه ، أن في أحشائه حيّاً آذاه ، ويرى لحمه وعظامه :

أما والذي قد قدّرَ البعـدَ بيننا
وبـاعـدَ عنّي ربعَهـا وخيـامَهـا
لفي طيّ أحشائي رسيسُ محبّةٍ
بَرَتْ ، يا لقـومي ، لحمها وعظـامها

ويسالها اللقاء ليلًا ، ففيه شفاء جراحه ، وليشرب من رضابها ، ويتمتع باحتضانها ، وثني قوامها ، وليتامل ملامحها ، ويسمع عتابها .

متى نلتقي ليلًا وتبرا جراحنا
ونفتـح عن تلـك الخـدود[٥٧] كمـامهـا
واشرب من ذاك المحيا وحسنه
بضمـة عطفهـا وأثني قـوامهـا
وارنو الى ذاك المحّيا وحسنه
واسمـع في ضمن العتـاب كـلامهـا

واخيراً يختم القصيدة داعياً الله تعالى أن يرعى روحه المعذبة ، التي ذاقت آلام الموت قبل حينه المحتوم :

رَعَى الله روحي كيف راحت حياتُها
وقـد شربت قبـل الحمام حِمامَهـا

ولست أدري كيف سوّغ العشاري كل تلك الصراحة : قبلات ، ورشف رضاب ، وضم وعناق ، مواقف تذكرنا بامرىء القيس وعمر ابن ابي ربيعة ، لم نتوقعها من انسان كالعشاري سلوكاً ، ولعلها أحلام شاعر داعبته رؤى اليقظة .

تلك هي أبرز أغراض شعر العشاري ، وله أغراض أخرى كانت أصداؤها خافته في ديوانه ، من ذلك « الحنين » الذي كان النص الاول في ذلك الديوان ، وجّهه الى بلدته « العشارة » ، وحملته قصيدة(١) رائية ، أبياتها (١٩) تسعة عشر ، من بحر الطويل ، بدأها بالدعاء .

سقى اليه تلكَ الدارَ هامية القطر
مدى الدهر في الناس ما ناح المطوق والقمري
وعمّ ديارا قد عَفَى الآن رسمُها
على أنهـا في الناس طيبـة الذكـر
وأحيا به روض « العشارة » كلما
تحـدّر دمعٌ من جفـونٍ على صـدرِ

ثم يسجل تحياته على « العشارة » ، وأرواح مَن رقدوا تحت قبابها :

عليها سلامٌ اليه ما أخضرّ مورقٌ
وفاح الشذا من شِعبها الطيب العطرِ
وروح أقـوام هنـاك قبـابهم
لقد ضربت حقاً على المجد والفخر

ويتحول الى الرثاء ، معّدداً أسماء منها : ابو طالب (محمد بن علي ابن الفتح بن علي) الحربي ، المعروف بابر العشاري المتوفى ببغداد سنة ٤٦١ هـ ، وهو جدّ العشاريين[٥٨] . ومنها ايضاً « عثمان » وقد يكون من

www.dorat-ghawas.com

أجدادهم ايضاً .

وفي الديوان نصوص في الاعتذار والتهنئة ، وهي الى المدح أقرب منها الى أي غرض آخر .

وله قصيدة لامية ، بحرها الطويل ، وابياتها (٤٣) ثلاثة واربعون ، نظمها متوجعاً لمصاب بغداد حين داهمها الطاعون ، والذي استمر من أوائل شعبان سنة ١١٨٦هـ حتى أواخر المحرّم سنة ١١٨٧هـ . مطلعها .

أبيتُ وبي وجـدُ حرارتـه تعلو
ودمعٌ له في عارضي عارض وبلُ(٥٩)

وبذا نكون قد وقفنا على الأغراض المهمة في ديوان العشاري ، وقد درسناها تباعاً ، على وفق أهميتها ، وحجمها في شعره .

هوامش المتن

(١) التراث العربي : ٢٦٨٢ (وزارة الثقافة والاعلام ، سلسلة كتب التراث ٧٦ بغداد ١٩٧٩)
(٢) العشارة ، بضم العين : بلدة كانت على مقربة من أطلال مدينة الرحبة القديمة على ضفة نهر الخابور ، تابعة الى دير الزور احد ألوية ولاية حلب .
(٣) ديوانه : ٨٤ ــ ٨٦
(٤) حاشية العشاري على شرح الحضرمي على المنهاج .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) المسك الاذفر ، محمود شكري الالوسي : ٨٧ (بغداد ١٣٤٦ هـ)
(٧) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، محمد خليل المرادي : ١ / ٧ (القاهرة ١٢٩١ هـ)
(٨) المسك الاذفر : ٨٧
(٩) ديوانه : ٩ (تحقيق د . عماد عبد السلام رؤوف ووليد عبد الكريم الاعظمي ، بغداد ١٩٧٧) .
(١٠) الاعلام : ١٤٨٢ (طبعة خامسة)
(١١) سلك الدرر : ٢ / ٣٣٠ ، المسك الاذفر : ٦٥ ، ديوانه : ١٣ .
(١٢) ديوانه : ١٢
(١٣) البغداديون ، أخبارهم ومجالسهم ، ابراهيم الدروبي : ٢٥١ (بغداد ١٩٥٨)
(١٤) الكشاف عن خزائن الاوقاف ، اسعد طلس : ٢٨٩
(١٥) هدية العارفين : ١ / ٣٢٨ .
(١٦) مجلة لغة العرب : ٤ / ٥١٤ .
(١٧) فهرس مخطوطات حسن الانكرلي المهداة الى مكتبة الاوقاف ببغداد : ١٥٩ ، وفهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد : ٢ / ٥٢٩ ، ٤ / ٣٨٣ .
(١٨) ديوانه : ٤٧
(١٩) ديوانه : ٤٩ ، (١٩) ديوانه : ٥٠ .
(٢٠) ديوانه : ٥١ ــ ٥٤ .
(٢١) ديوانه : ٥٢ .
(٢٢) ديوانه : ٨٢ .
(٢٣) ديوانه : ٨٣ .
(٢٤) ديوانه : ٧٧ .
(٢٥) ديوانه : ١٨٨ ــ ١٩١ .
(٢٦) ديوانه : ٥٨٦ ــ ٥٨٩ .
(٢٧) ديوانه : ٥٩٠ ــ ٥٩٢ .
(٢٨) ديوانه : ٥٩٤ ــ ٦١٥ .
(٢٩) ديوانه : ٦١٦ ــ ٦٢٣ . والصواب ان يقول : ثلاثة بنود .
(٣٠) ديوانه : ٦٢٣ ــ ٦٣١ .
(٣١) ديوانه : ٩٢ ــ ٩٨ .
(٣٢) ضمن عجزاً من بيت لابن الفارض ، وصدره : وعلى تفنن واصفه بحسنة . انظر ديوان عمر بن الفارض : ٩١ (تصحيح محمود توفيق ، القاهرة)
(٣٣) ديوانه ، النصوص : ٣٣ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١٣١ .
(٣٤) ديوانه ، النصوص : ١٠ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ١١٩ ، ١٤٢ .
(٣٥) ديوانه ، النصوص : ٢٣ ، ٧٥ ، ١٤٨ ، ١٥٣ .
(٣٦) ديوانه ، النصوص : ١٢ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ .
(٣٧) ديوانه ، النصوص : ١٦ ، ٣٤ ، ٨٤ ، ٩٧ .
(٣٨) ديوانه ، النص : ٤٣ .
(٣٩) ديوانه ، النص : ١٧ .
(٤٠) ديوانه ، النص : ٥٢ .
(٤١) ديوانه ، النص : ٩٥ .
(٤٢) ديوانه ، النص : ١٦١ .
(٤٣) ديوانه ، ص ٤٨٩ ــ ٤٨٠ .
(٤٤) ديوانه : ١١٤ ــ ١١٧ .
(٤٥) ديوانه ، النص : ٩ .
(٤٦) ديوانه ، النص : ٢٥ .
(٤٧) ديوانه ، النص : ٧ .
(٤٨) ديوانه ، النص : ٣٢ .
(٤٩) ديوانه ، النص : ٣٥ ، ٦٩ ، ١٥٦ .
(٥٠) ديوانه ، النص : ٣٥ ، ثم ينظر النصان : ٦٩ ، ١٥٦ .
(٥١) ديوان النابغة الذبياني) ١١ (دار صادر بيروت ١٣٨٣ / ١٩٦٣)

ولا عيب فيهم غيـــر أن سيـــوفهم
بهنْ فلـــولٌ من قِـــراعِ الكتـــائبِ

(٥٢) ديوانه ، النص : ٧٠ .
(٥٣) ديوانه ، النص : ١٢٢ .
(٥٤) ديوانه ، النص ٥٣ ، ١٠٥ .
(٥٥) ديوانه ، النص : ٦١ .
(٥٦) ديوانه ، النص : ٨٣ .
(٥٧) ديوانه « الحدود » بالحاء المهملة ، ولكنني وجدتها بالخاء المعجمة مناسبة للمعنى .
(٥٨) ديوانه ، النص : ٨٥ ، هامش (٢٥)
(٥٩) ديوانه ، النص : ٣٠ .

www.dorat-ghawas.com